الإنسان والوعي التاريخي: قراءة في فكر مالك بن نبي

د. رباني الحاج
جامعة معسكر

مقدمة:

تكاد تجربة مالك بن نبي في عالم الفكر في القرن العشرين تكون من التجارب القليلة في العالم الإسلامي بصفة عامة، وفي الجزائر بصفة خاصة، لقد حاول أن يفهم أسباب الإنحطاط والتخلف الذي طبع واقع الإنسان في العالم الاسلامي ومنه واقع المجتمع الجزائري الذي كان يرزح تحت نير الإستعمار ردحا من الزمن، إهتم مالك بن نبي بمشكلات الواقع دون أن يفصلها عن مشكلات الفكر فرأى أن جوهر المشكلة يكمن في الوضع الذي يوجد عليه الإنسان، وهذا يعني أن الإنسان هو محرك التاريخ وهو المتحكم في توجيه حركته، علق مالك بن نبي أملا كبيرا على الفاعلية الإنسانية في إحداث التغيير، وأعطى للجانب النفسي والعامل الفكري أهمية بالغة، لكنه في الوقت نفسه حاول أن يوظف التوتر النفسي والفكري توظيفا عمليا حتى لا يبقى الفكر ميتافيزيقيا، وهذا يعكس مدى إقتناعه بأن المشكلة في أساسها حضارية . تتعلق بالدور الذي يجب على الإنسان المسلم أن يلعبه ليعود من جديد إلى التاريخ، فالإنسان لا يحقق وجوده مالم يكن فاعلا في التاريخ، ولا يمكن أن يكون فاعلا في التاريخ مالم ينهض بوعيه، ويرتبط هذا الوعي بمدى قدرته على تحويل الأشياء غير المفيدة إلى أشياء مفيدة في فترة زمنية محدودة، وهذا يعني أن وعيه وعيا تاريخيا، أي أنه وعي غير تلقائي، وبالتالي فهو وعي يتمحور حول قيمة حضارية معينة، ويستهدف تحقيق معنى ما لحركته في الزمن، يركز مالك بن نبي في تحليلاته

النقدية على العوامل الذاتية، ويحاول الحفر عن الأسس الحقيقية للتخلف والإنحطاط الذي أصاب العالم الإسلامي .

- **مالك بن نبي، عناصر أولية للتفكير:**

رغم إهتمام مالك بن نبي بالعوامل الموضوعية في بناء الحضارة كالتراب والوقت إلا أنه إنشغل في طرحه لمشكلات النهضة بالإنسان وضرورة النهوض به من خلال الإشتغال على تغيير ثقافته التي اكتسبها من عصور الإنحطاط واستبدالها بثقافة جديدة تمكنه من العودة مرة أخرى إلى ساحة العمل التاريخي، وسؤال النهضة عند مالك بن نبي يتراوح بين الإنفتاح على الماضي والإنفتاح على الحاضر ، وبين الإنفتاح على السماء والإنفتاح على الأرض، بين النزوع الذاتي السيكولوجي وبين النزوع العقلاني الواقعي والسوسيولوجي، إن سؤال الحضارة يمر عبر سؤال التاريخ، التاريخ – التحدي هو تاريخ الفاعلية الإنسانية، يؤدي بنا هذا إلى طرح السؤال التالي، إلى أي مدى إلتزم مالك بن نبي بفكرته حول فاعلية الإنسان ؟ وهل إستطاع تحرير هذا الإنسان من كل الرواسب التي أدخلته في عصور الإنحطاط وبالتالي استعاد له وعيه التاريخي ؟

-الوعي الإنساني بين عالم الأشياء وعالم الأفكار:

يرى مالك بن نبي أن هناك تصورين رئيسين، التصور الأول يستند إلى رؤية أرضية تدفع الوعي إلى الإنشغال بالأشياء الموجودة في الواقع الملموس، أما التصور الثاني فيستند إلى رؤية سماوية تدفع بالوعي إلى الإنشغال بالأفكار وبالحقائق الغيبية، وهو يستخلص أفكاره هذه من خلال المقارنة التي أقامها بين شخصيتين نموذجيتين، شخصية "روبنسون كروزو " وشخصية "حي بن يقظان "، فبالنسبة ل " روبنسون كروزو " « الوقت

يجري منذ البداية في وقائع محسوسة. أكـل – نـوم – عمـل . وهـي وقـائع تكمن في طبيعة خاصة، تضع ثواني الزمن في خدمة إقتصاد شخصي نفعـي بحت . فروبنسون كروزو يتغلب على كآبة الوحـدة بالعمـل. وخـلال هـذا الوقت من ذلك اليوم فإن عالم أفكاره كله يتركز حول (شيء): إنها الطاولة التي كان يريد صنعها لنفسه» (بن نـبي، م .2005 : 20 – 21) .أمـا حـي ابـن يقظان « فعالمه تتركز فيه الأشياء حول فكـرة. وهـو لا يتغلـب علـى كآبـة الشعور بالوحدة بصنع طاولة، بل ببناء الأفكارواكتشافها، إنه عالم لا يتحدد فيه الزمن لصالح شيء ما » . (بن نبي، م . 2005 : 22) .

من الواضح أننا هنـا أمـام عـالمين متمـايزين عـن بعضـهما تمـايزا جوهريا، عالم ينشغل بما هو غيبي، ما ورائي، وعالم ينشـغل بمـا هـو طبيعـي محسوس، إن هذا الإختلاف هو إختلاف في كيفية إدراك كينونـة العـالم، أي أنه إختلاف في تصور الإنسان لعلاقته بالعالم، وبالتالي إختلاف في الوجهـة التي يتحرك فيها إنسان العالم الأول عن الوجهـة الـتي يتحـرك فيهـا إنسـان العالم الثاني، وهذا يعني أننا أمام نمطين للوعي مختلفين ، هذه مقاربة مؤداها البحث عن هوية للإنسان في العالم، لأن هذا الإنسان ليس له من قدرة على الحركة مالم يشعر بوجود معنى ما لحركته تلك، وهنا يقـف مالـك بـن نـبي موقفا أساسيا من كيفية تشخيص واقع الإنسان في العالم الإســـــــلامي، بحيث يتصور أنه لا يختلف في وضعه عن بقية البشر من حيث أن له « قيمة ثابتة تمثل حقيقته كإنسان وهي قيمة توهب له طبيعته الأولى بمـا وضـع الله عز وجل فيها من تكريم وحسن تقويم، وقيمة متغيرة وهي قيمة إجتماعيـة

مكتسبة نتيجة العلائق الإجتماعية في المستوى المعاشي و الأخلاقي و السياسي » . (سعيدي، ح . 1994 : 334).

- **مشكلة الانحطاط من الطرح العقائدي إلى الطرح التاريخي:**

يترتب على هذا التحليل لماهية الإنسان رؤية هامة تنظر إلى الإنسان ككائن تاريخي باعتباره مضطرا إلى الإنخراط في شبكة علاقات إجتماعية تمكنه بالفعل من تجسيد المعنى الحقيقي لوجوده على أرض الواقع . وهو ما يجعله منخرطا في نظام العمل التاريخي، لذلك يتصور مالك بن نبي أن الإنحطاط لا يعني فساد الطبيعة البشرية ولا فقدان المعنى الحقيقي أو فقدان العقيدة كما يتصور البعض ، بل يعني فقدان الشروط التي تسمح بتحويل الإيمان إلى عمل والإعتقاد إلى فعل، إذا المشكلة تاريخية وليست عقائدية فحسب، المشكلة أكثر تعقيدا مما يبدوا للوهلة الأولى، ولهذا فالتفكير في الخروج من الإنحطاط إلى النهضة ينبغي أن ينتبه إلى الوضع التاريخي للمشكلة وهو ما يقتضي نوعا من الموضوعية مما يستلزم النظر إلى الذات في التاريخ كنظام عمل، من هنا لا يصبح مفهوم النهضة يعني أكثر من إستعادة زمام المبادرة، أي إعادة تفعيل الطاقات والقدرات الكامنة والمضمرة، وبالتالي فنحن لسنا بصدد تغيير الفكر تغييرا جذريا، بل بصدد تفعيل الجوانب القارة في النفس الإنسانية، وعليه فالنهضة تعني « توفير مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات و الأمن في جميع صوره عبر سائر تراب

القطر واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه » . (بن نبي، م.1964 : 46 ، 47) .

من الواضح أن هذ التعريف للنهضة ناتج عن تصور وظيفي ينم عن الحد من التصور العقائدي لمشروع النهضة الذي سيطرت عليه الصراعات الإيديولوجية والجدالات الفكرية بدل الإهتمامات العملية والأفكار الوظيفية التي تهدف إلى معرفة الواقع وتقديم حلول وبدائل قابلة للإنخراط في العمل من أجل إعادة الإنسان المسلم إلى التاريخ بعد أن إنسحب منه لمدة طويلة، وهذا الإنسحاب ليس بسبب تخليه عن الإعتقاد بأفكاره التي يؤمن بصحتها وصدقيتها نهائيا، لأن تلك الأفكار هي في جوهر ذاتيته بل بسبب عدم قدرته على توظيفها وتفعيلها في حياته أي التصرف والسلوك وفقا لما تمليه وتتطلبه، مرة أخرى المشكلة الأساسية في تصور مالك بن نبي هي في فساد الواقع وفي فقدان الصلة بين الفكرة الأصلية والواقع التاريخي وفقدان الصلة هذا هو ما جعله يؤكد على الإنتقال الإبستمولوجي من علم الكلام القائم على الجدل إلى علم النفس وعلم الإجتماع القائم على تحليل شخصية الفرد وعلى تحليل شبكة العلاقات الإجتماعية، وذلك من أجل وضع المشكلة في إطارها الصحيح أي في إطارها الإنساني والإجتماعي والنفسي .

- **الوعي التاريخي وعالم الأفكار بين مشكلة التأصيل ومشكلة التفعيل:**

إن مالك بن نبي يقسم الأفكار إلى فعالة وأصيلة وعلينا أن نستقرأ حوادث التاريخ وننظر إليها « كأفعال وردود أفعال بين عوامل إجتماعية

ونفسية معينة توجب علينا فحصها بالجهد الدقيق، ودراستها دراسة مدققة» (بن نبي، م. د، ت : 55). حتى نميز هاته عن تلك، يبدوا هنا هاجس ربط الفكر بالتاريخ واضحا، إذ لا يكفي محاكمة الأفكار إلى ذاتيتها فحسب، بل يجب الإحتكام إلى فعاليتها ، فقد تكون الأفكار صحيحة لكنها غير فعالة وقد تكون فعالة لكنها غير صحيحة، رغم ما يحاوله مالك بن نبي من تخليص الفكر من طابعه المثالي والميتافيزيقي إلا أنه لم يستطع التخلص من فكرة الأصل والنموذج والدفاع عن نقاوة الفكرة الأصلية وطهارتها أي رغم ما يعلنه من وجهة نظر موضوعية إلا أنه يستقر على وجهة نظر ذاتية مفادها تعالي الذات عن التاريخ، وتوجيهه وفقا لغاية ذاتية، لذلك فالوعي بالتاريخ هو وعي ذاتي متمركز حول فكرة أصلية، ومنه فالتاريخ هو تاريخ الوعي وتاريخ الذاتية في قدرتها على تحدي العوائق والعراقيل الموضوعية، وعليه ففاعلية الإنسان في التاريخ تبدأ من تسامي الإنسان عن معطياته الموضوعية والواقعية والعمل على تغييرها وفقا لغايته الذاتية، وهذا يعني مواجهة معطيات الواقع بضرورات الفكر المستلهمة من الإيمان بمبدإ روحي متسامي وأخلاقي يربط بين أصالة الفكرة وفعاليتها لذلك تنطلق مسيرة التاريخ « بظهور فكرة دينية ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم العقل » . (بن نبي، م. د، ت : 55).

يربط مالك بن نبي بين السمو الأخلاقي وبين الإنسان ككائن تاريخي له مشروع حضاري، فالسمو الروحي يمكن الإنسان من تجاوز طبيعته الغريزية والتحكم في تحويل طاقاتها إلى طاقات بناءة وفعالة في الإتجاه الصحيح، لذلك فالتعامل الروحي مع فكرة معينة هو الذي يجعلها تتحول إلى واقع فعلي تتجه مكوناته وجهة واحدة مما يجعلها غير متعارضة ومتناقضة، وهذا يعني أن الفكرة الروحية هي التي تعطي للتاريخ معناه،

وبالتالي فالتاريخ ليس فقط مجموع الأحداث والوقائع بل هو المعنى الـذي يوجه تلك الوقائع و الأحداث، ومع بداية الشعور بأهميـة وقيمـة الفكـرة الروحية يبدأ التاريخ في الإنحدار إلى ما هو أرضي. أي يصبح مرتبطا بما هو شخصي وظرفي وبما هو أناني ونفعي، فتسيطر الأفكار الفعالة بدل الأفكـار الأصيلة أو الصحيحة، وهنا نلحظ مـدى العمـل علـى التوفيـق بـين المثـل والوقائع في فكر مالك بن نبي، وهذه النزعة التوفيقية كثيرا ما تجعـل الفكـر يبتعد بنفسه عن الواقع، خاصة وأننا هنا أمام مفكر يضـع للتعـاطي مـع الأفكـار أكثر من معيار . وأحيانا يصعب التوفيق بين تلـك المعـايير لأنهـا تبـدوا متناقضـة ومتضاربة، مما يجعلنا نشعر أن هذا النمط من التفكير يفصل بـين الفكـر والواقـع فيجعل للفكر معايير الأصالة ويجعل للواقع معـايير الفعاليـة في حـين أن الحقيقـة تتطلب وضع أسس ومعايير مشتركة للفكر والواقع وتتطلب الربط بينهمـا حتـى لا يبدوا أحدهما أعلى وأسمى من الآخر، فنسقط في الوعي القيمـي أو المعيـاري بدل الإرتباط بتأسيس وبناء وعي تاريخي.

الظاهر أن تكوين مالك بن نبي العلمي بقدر مـا سـاعده علـى الـتفكير بطريقة منهجية والإنتقال به إلى حقل إبستمولوجي جديد مقارنة بمن سبقوه في الفكر الإصلاحي والنهضوي إلا أنه انعكس على رؤيته للتـاريخ، رؤيـة استاتيكية، ونظرته إلى الفكر نظرة تقنية تبسيطية تطبعها البرودة الـتي تجمـد حيوية الفكر و تلغي علاقته المعقدة بـالواقع، وتجعـل منـه إنعكاسـا بسـيطا لوضع نفسي وإجتماعي غير منسجم، لـذلك يقـول أن « المجتمـع الـذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه أن يصنع المنتجات الضرورية لإستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه ولن يمكن لمجتمـع في عهـد التشـييد أن يتشـيد بالأفكار المستوردة أوالمسلطة عليه من الخارج » (بن نبي،م . 1969 : 29) .

يوجه مالك بن نبي الفكر إلى العمل ويؤكد على ذاتية الفكر وعلى ضرورة التماهي بين الفكرة والواقع، كما يصر على فكرة الإنسجام والتوازن مما جعله يلاحظ أن « المسلم حين يتخطى عتبة المسجد ينتقل إذن من حال إلى حال أخرى وهذا يضطرنا إلى أن نسجل ملاحظتنا أن هناك إنفصام بين العنصر الروحي والعنصر الإجتماعي، هناك إفتراق بين المبدأ والحياة » . (بن نبي، م . 1986 : 105) .

وبوضوح تام يشير مالك بن نبي إلى الإنفصام بين المبدأ والواقع، مما يشعرنا بأن الحل في نظره يكمن في إخضاع الواقع لسلطة المبدأ، أو مساندة المبدأ لسلطة الواقع، ولذلك يتصور أن « الحضارة الإسلامية لم تنشأ عن مبادئ الإسلام بل إن هذه المبادئ هي التي توافقت مع سلطة زمنية قاهرة». (بن نبي، م . 1981 : 55).

- النزوع الوظيفي واختزال الوعي التاريخي:

يتعارض هذا الإعلان بشكل صريح مع حرية الفكر، فكر مالك بن نبي وبسبب نزعته الوظيفية ووجهته العملية وحسه العلمي يؤدي إلى الوقوع في دوغمائية لا تترك مجالا للنقد الحر لمبادئ الفكر والواقع، كما أنها لا تسمح بوجود إختلاف مقبول لأنها ترى أن غاية التاريخ هي تحقيق المبدأ الروحي والأخلاقي دون الإهتمام بأهمية الإختلافات الفكرية وحرية الإنسان الداخلية، وكأن مالك بن نبي يرى أن الحقيقة واضحة ولا يمكن الإختلاف حولها، فقط يجب أن نفكر تفكيرا إجرائيا لتفعيلها في حياتنا كأفراد وفي واقعنا كمجتمعات، لذلك لا نهتم بالتفكير في أصل الفكرة بل علينا أن نفكر في فعاليتها .

يكشف لنا هذا عن مدى إخضاع الإنسان لأخلاقية صارمة وعن مدى إخضاع التاريخ للفكرة الأصلية غير المتفاعلة وغير المتأثرة بالتاريخ

الإنساني، ويعود هذا إلى رغبة مالك بن نبي في البحث عن نموذج نهضوي شامل وعن حل جذري لمشكلات العالم الإسلامي، لكنه تناسى أن بداية الدخول في مرحلة الإنحطاط إرتبطت بمشكلة المشكلات وهي الإستبداد المبرر تبريرا بإيديولوجيا الجبر، كما تناسى أهمية المشكلات الكلامية في الوعي الإسلامي، وبهذا يكون قد ألغى جانبا مهما من الفكر والواقع الإسلامي، واختزل التاريخ في جانبه العملاني على حساب جانبه العقلاني، لا شيء إلا لأنه يربط بين العقل والأنانية ويجعله نقيضا للروح وعائقا لها ولذلك فهو يعمل على ربطه وتقييده بمقتضيات تلك الروح، وبالتالي فالإنسان ماهو إلا مجموعة من الطاقات التي يجب السيطرة عليها والعمل على توجيهها توجيها نحو الغاية المثلى التي توحد تلك الطاقات وتجعلها تصب في سياق واحد، وعليه فالنهضة الحضارية تستلزم « إنقلابا يبدأ من نفسيات الناس وأخلاقياتهم ومعاملاتهم لينشئ عالم المؤسسات الإجتماعية، فالتغيير ينصب على النفوس وينعكس على الأشياء والعلائق الإجتماعية، وفقا لقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ». [سورة الرعد : الآية 11] . (بن نبي، م . 1994 : 340).

إن إتجاه مالك بن نبي هذا جعل المشكلة برمتها مرتبطة بحدوث خلل في البناء الفردي والإجتماعي، مجرد خلل، وكأن المشكلة ليست جوهرية ومرتبطة باهتزاز البناء الفكري والحس الوجودي والتصور العقلي بل هي مشكلة أخلاقية وإجتماعية فحسب، مما جعله يركز على المقولات البسيكولوجية كمقولات التوتر والفاعلية والدافعية باعتبارها مقولات ضرورية لإحياء القيم الأصيلة في نفسية كل فرد كما في نسيج العلاقات الإجتماعية، وهكذا يربط مالك بن نبي بين الشعور وبين الوعي التاريخي وهذا الشعور القطعي قد يعدم الوعي التاريخي ويجعل الإنسان غير قادر

على التفاعل مع واقعه وغير قادر على الإنخراط في نظام الفكر المتجدد، لأنه يكتفي بأفكاره الأصلية مما سيجعله يشعر بغربته عن العالم الذي يعيش فيه، الحقيقة أننا إذا ما إلتزمنا الجانب النظري لفكر مالك بن نبي لوجدناه يتميز بنقص واضح يتمثل أساسا في تغليبه لفكرة الروح على العقل والغريزة، أما إذا إلتزمنا الجانب العملي لوجدناه يتصور الواقع تصورا ملائكيا يكاد يخلو من أي صراع، وذلك أن صفاء الواقع نابع من صفاء الفكرة التي تحرك عناصره الأساسية وهي الإنسان والتراب والوقت.

ما يهمنا في هذه العناصر كلها هو الإنسان وشكل حضوره في فكر مالك بن نبي، وهل استطاع هذا الفكر أن ينقل الإنسان من مرحلة ما بعد الموحدين إلى مرحلة تحرير أفكاره وإطلاق قدراته؟

يقودنا هذا إلى مراحل الحضارة على اعتبار أن إنسان مالك بن نبي ليس له من معنى إلا في إطار رؤية حضارية معينة، وبالتالي فمعنى الوجود الإنساني مستمد من السياق االقيمي الذي يوجد فيه، وهذا ما يجعل تاريخية الإنسان مشروطة بمنظومة قيمية معينة تتحكم فيه وتوجهه بشكل قسري نحو غاية متوافقة مع تلك القيم، لكن رغم أن القيم مسألة ضرورية لكل وجود إنساني إلا أنها تختلف من حيث طبيعتها من رؤية فكرية إلى رؤية فكرية أخرى وذلك من خلال علاقتها بالإنسان وإنعكاسها على وجوده وعلى شكل وعيه لذاته وتحريره لتلك الذات أو تكبيلها وتقييدها.

خاتمة:

إنّ مالك بن نبي ينظر إلى الإنسان في ظل رؤيته الحضارية فيجعله عنصرا هاما من عناصر الحضارة، ومع ذلك فهو يجعله مستلبا عندما يتصورأنه لايتحرك في هذا الإتجاه إلا عندما يخضع خضوعا تاما لروح متعالية تجعل فكره يرتبط بمبدإ يتجاوزذاتيته وهذا مايجعله يستغرق في التعالي عن ذاته فيتجه وعيه إتجاها ميتافيزيقيا ويكون بذلك يبحث عن تحقيق وجوده خارج شرطه التاريخي، ومع ذلك تبقى

جهود مالك بن نبي شاهدة على إنشغاله الدائم بإعادة الوعي العربي الإسلامي إلى الإنخراط من جديد في نظام العمل التاريخي، كما أنه أصبح من نافلة القول الجزم بأن حصول أي نهضة لا يمكنه أن يحصل ما لم يتم فهم وتحليل الوجود الإنساني في أبعاده المختلفة الشيء الذي أكد وألح عليه

المفكر مالك بن نبي وعمل جاهدا على تأصيله في تاريخ وعينا كما في وعينا التاريخي وهوما ينتظرنا اليوم كمجتمعات تتخبط في مشكلات فكرية وحضارية مازالت عاجزة عن فهمها وتحليلها بشكل موضوعي ووعي تاريخي.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم.

1 – بن نبي، مالك. (1969). إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، القاهرة: دار الإرشاد بمصر.

2 – بن نبي، مالك. (1981) .وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر بدمشق.

3 – بن نبي، مالك. (1986) . ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر بدمشق

4 – بن نبي، مالك. (2005). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط1. دمشق : دار الفكر بدمشق.

5 – بن نبي، مالك. (د ، ت). آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.

6 – بن نبي، مالك. (د، ت). حديث في البناء الجديد، جمع و ترجمة عمر مسقاوي .

7- سعيدي، حمود.(1994). مقولة التوتر في البناء الحضاري، مجلة الموافقات. المعهد الوطني العالي لأصول الدين. الجزائر. العدد03. ص ص 333- 341.